

عائد من الظلام

بقلم / أعلام النصر

قِصَّةٌ مَثَلٌ لَوَاحِدَةٍ مِنْ جَرَائِمِ الصَّليب



عائد من الظلام!

- الحلقة التاسعة والعشرون -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصة:

عائد من الظلام!

- الحلقة التاسعة والعشرون -

#بقلم: #أحلام_النصر

(قصة مثل لواحدة من جرائم الصليب)

#قناة_مؤسسة_أوار_الحق



(٧٠)

وضع الشاب "ألفونس" كوباً من عصير البرتقال على الطاولة أمام الضابط
"إدوارد"، وقال بأدبه الجم:

- تفضل يا سيدي!

ابتسم "إدوارد" وقال:

- ألا يُفترض أنك سائقي يا بني؟

ابتسم "ألفونس" بخجل، وقال:

- هذا في المقام الأول، وليس لي سيدي بالتوضيح؛ إذ إنني أحب العمل على
راحة مخدومي، كسكرتيه وخادمه ومرافقه بالضبط!

ابتسم "إدوارد" بارتياح، وقال:

- فعلاً أحتاج إلى الراحة وإلى وجود من يفهمني يا بني.

هز "ألفونس" رأسه مؤكداً، إلا أن الضابط الذي كان قد أنهى للتو كوب قهوته؛
رفع كأس العصير في وجه "ألفونس"، وقال ببرود:

- ولكن من أجل صداقتنا.. ستشرب أنت أولاً!

رفع "ألفونس" نظراته بدهشة وبراءة تجاه الضابط، الذي ابتسم بإصرار وقال:

- أنا لا أحب المفاجآت إطلاقاً!

غمغم "ألفونس":

- أمرك يا سيدي!

وتناول الكأس بهدوء، ورشف منه القليل باستمتاع، راقبه الضابط ملياً؛ فلم يرَ ما

يريب، وعندها ابتسم مرتاحاً، وقال وهو يمد يده باتجاهه:

- أعطني إياه إذاً! يبدو منعشاً!

ابتسم "ألفونس" وقال:

- فعلاً! تفضل يا سيدي.

بدأ الضابط بارتشاف العصير، بينما همس "ألفونس" وهو مطأطئ الرأس:

- هل يريد سيدي أي شيء؟

سأل الضابط برقة:

- هل انزعجت من احتياطاتي يا بني؟

أجاب "ألفونس":

- نهائياً يا سيدي! إنه حقك الكامل، ودليلُ براعتك الفائقة!

ابتسم الضابط وقال:

- جيد! فحتى السؤال كان اختباراً لك! يمكنك الانصراف.

- حاضر يا سيدي.

وانسحب بهدوء، ثم ولّاه ظهره، تشيّعهُ نظرات الضابط المرتاحة.

وأغلق "ألفونس" باب حجّره عليه، واستلقى على فراشه مستعيداً بعض الذكريات:

كان قد اجتمع مع المثلث في المقهى، تصرفاً كأَي زبونين عاديين، ومرّراً بعضَ الضحكات الصاخبة على سبيل "طيش الشباب"، ثم سدّد المثلث نظرات حادة إلى "مسعود"، وهمس له:

- والآن هيا بنا.

وحيث اختلّيا في غرفة سكن "مسعود"؛ قدّم المثلث له مجموعة أوراق وقال له:
- لقد اجتزّت الدورة الشرعية والعسكرية والأمنية بنجاح بتوفيق الله تعالى لك،
والآن جاء دور العمل.

تناول "مسعود" الأوراق، وبدأ يقلبها، بينما تابع المثلث:
- ستكون أنت هذا الشخص؛ هنا مشوار حياته، وصفاته وطباعه، وحتى ذوقه في
الطعام، احفظ معلوماتك جيّدًا ثم أحرّق الأوراق، سيصل الخنزير قبل الضابط،
وسنكون مستعدين لعملية استبدالك به بعون الله تعالى.

وتابع مبتسمًا:

- سنتركه يوفر علينا عناء السفر والإجراءات المعتادة، بينما سنوفر عليه مهماته
المفترضة برفقة الضابط.

هز "مسعود" رأسه وقال متمعنًا في صورة الصليبي:

- تمام بإذن الله تعالى، إنه فعلاً يشبهني.

أردف المثلث:

- مع بعض التعديلات، لا بد أن يكون كل شيء دقيقًا.

تنهد "مسعود" وقال:

- أعرف، لكن ما أصعب أن ألعب هذا الدور!

قال المثلث بلهجته الحاسمة:

- سيهون الأمر عليك عندما نتذكر أنه في سبيل الله إن شاء الله؛ فالحرب خدعة، ولا بد أن نتقن دورك ولا تترك أحداً يشك فيك، وهذا الضابط الخطير ليس سهلاً أبداً؛ فكن حريصاً يا أخي، واكسب ثقته الكاملة قدر ما تستطيع.

- لا تقلق أبداً يا أخي، سأكون عند حسن ظنكم جميعاً إن شاء الله تعالى.

- جيد، وفقك الله.

وجاء "ألفونس" الحقيقي أخيراً، وعرف المثلث في أي فندق يعيش، فاتجه نحوه بعد المغرب هو وأخ آخر، كانا في ردهة الفندق يغنيان بصخب على عادة الشباب وقد تشابكت أذرعتهما، بينما كان موظفو الفندق يرمقونهما مبتسمين، وسأل المثلث بطرافة عن غرفة "صديقه"، فأرشدتهما الموظف إليها، ثم قال:

- استمتعوا بوقتكم!

قال المثلث ضاحكاً:

- لا تقلق يا صاح.

واتجها إلى الغرفة وهما متشابكا الأذرع على حالهما من الغناء والمرح، كان هذا لازماً؛ لأن "ألفونس" الذي غادر معهما بعد ساعة من مكوثهما في غرفته: كان مترنحاً من أثر المخدر الموضوع في المشروب، وكان لا بد أن ينزل معهما وهما يسندانه من ذراعيه ليبدو ثملاً مشارِكاً في حالة الصخب المرح، وابتسم موظف الفندق وسألهم ضاحكاً:

- هل ستكملون سهرتكم في الخارج؟

أجاب المثلث بطرافة:

- هذا أبسط احتفال بلقاء الصديق!

وفي ساعات الصباح الأولى؛ جاء "مسعود" متظاهراً بالترنح، وطلب مفتاح غرفته بلسان ثقيل، فأعطاه الموظف له وهو يقول مبتسماً:

- يبدو أنك أفرطت في السهر!

هز "مسعود" رأسه بصعوبة، ثم اتجه إلى غرفة "ألفونس" الذي صار تحت التراب قبل فترة.

(٧١)

دق "ألفرد" النظر في أوراق العمال المتقدمين للعمل في نظافة الكنيسة والمعسكر،
ثم قال لـ "جيمس":

- الكنيسة تريد إرسال عامل واحد فقط لتحفظ لنفسها بالباقي!

وعقد حاجبيه بانزعاج وتابع:

- يا لهم من بخلاء! نحتاج إلى عمال أكثر، لنقل: نريد ثلاثة على الأقل!

قال "جيمس":

- حسن، أخبرهم بهذا.

وبعد مفاوضات وافقت الكنيسة على إرسال عاملين فقط، مع خطاب ساخر
عن وجوب امتنان القساوسة لذلك في ظل ظروف معسكرهم الراهنة، وكون
استمراره صار محط نظر عند القيادة، وهتف "ألفرد" منغاضبًا:

- الأوغاد! سأجعلهم يدفعون الثمن!

همس "جيمس":

- ليس الآن يا "ألفرد"! ركز مع العمال الجدد.

رفع "ألفرد" رأسه قائلاً:

- معك حق، إذا اجتازا امتحان قدراتهما مع "ألبرت" فأرسلهما إلي.

وبعد الامتحان؛ توجه "جاكيلنو" إلى مكتب "ألفرد" وطرق الباب بأدب، وحين سُمح له بالدخول: دخل وعلى وجهه ابتسامة صغيرة وقور، تليق بعامل كهل، صعد "ألفرد" نظره فيه، ثم جاذبه بعض أطراف الحديث، وكان "جاكيلنو" يجيب ببساطة وطيبة، مما ترك عند "ألفرد" شعوراً جيداً؛ إذ بدا له رجلاً ساذجاً لا يفكر إلا في إتقان عمله، وقال "ألفرد" في النهاية:

- اطلعتُ على ملفك، وسألتُ عن معلوماتك عند القيادة؛ كل شيء كان يدعو إلى التفاؤل، لكنك ستكون تحت المراقبة لفترة؛ حتى نطمئن إلى كفاءتك فعلاً!

طأطأ "جاكيلنو" رأسه بهدوء، وقال بصوته الخافت المهدب:

- تحت أمرك يا سيدي.

- يمكنك الانصراف.

واستعد "جاكينو" للقيام بواجباته، كان "قتادة" قد تَمَّصَّ الدور جيداً، واستعد للعمل أخيراً بعد سنوات أمضاها وهو يتظاهر بين الناس أنه "جاكينو"، ومَرَّت في رأسه سريعاً خلاصةُ دوراته التدريبية الثلاث: الشرعية والعسكرية والأمنية، بينما كان "جاكينو" الحقيقي قد بليت عظامه منذ زمن طويل تحت التراب.

قال المثلث لكل أخ أمني على حدة:

- واعلم يا أخي أن ثمة خيطاً رفيعاً للغاية بين الأمنيات وبين الفسق الحقيقي، وأن عليك تقوى الله عز وجل في السر والعلن، وأن تنتبه جيداً؛ فكما عليك إتقان عملك وأن يكون ظاهرك مقنعاً للكفرة؛ فكذلك عليك الحذر كي لا يتسرّب شيء من ذلك إلى باطنك، وخير ما يعينك على ذلك بعون الله تعالى: الإكثار من صلاة قيام الليل في غفلة من الكفار.

نأتي للعمل؛ سيكون عليك أن تتظاهر لسنوات أنك فلان من الكفار؛ حيث اخترنا الشخص المناسب والشبيه لك في عمل كان يمارسه فعلاً وقد نحتاج أن تقوم أنت به في أي وقت، سيكون عليك الصبر على هذا الوضع؛ إذ لن يبدو من المنطق أن تظهر مكانه فجأة، بل لا بد أن تدخل مجتمعه وتخالط أقرانه فترة كافية ليقتنعوا أنك هو، وكن جاهزاً دوماً لأية مفاجأة، محتفظاً بثقتك وهدوئك حتى يشك الآخرون في أنفسهم ولا يشكّوا فيك، ولا تنسَ ما تعلمته في ثلاثة الدورات المهمة: الشرعية والعسكرية والأمنية.

تذكر: ربما كانت قمة الأمان أن تكون في صلب الخطر، بيد أن اقترابك اللصيق من
عدوك دون حذر: فيه خطر كبير كذلك، وإن كان في أضعف حالاته! عليك
دائماً أن تكون متوثباً لتنجو من ضربة خاطفة، أو طعنة غادرة، لا تستهن بعدوك
أبداً مهما بدت المقومات بالمنظور البشري: إلى صالحك، واحسب حساباً حتى
لحلاوة الروح في الخنزير المذبوح.

وفقك الله وحماك من كل سوء.

(٧٢)

طرق "بونبرت" باب مكتب "ألفرد"، ثم دلف إليه وأغلق الباب خلفه، واتجه إلى
"ألفرد" قائلاً:

- اسمع يا "ألفرد"! بالرغم من كل المشكلات التي تواجهنا الآن، إلا أن عليك ألا
تُغفلَ أمر "ألبرت"!

رفع "ألفرد" عينين متسائلتين إلى محدّثه الذي تابع موصحاً:

- أنا و"جيمس" لا نشعر بالارتياح مطلقاً؛ فالفتى صار يعرف عنا وعن أعمالنا أكثر من اللازم، ولا ينبغي ترك هذا الأمر دون ضبط.

فتح "ألفرد" فمه ليتكلم، فهتف "بونبرت" بسرعة:

- ولا تقل لي إنك تثق فيه، وإن هذا كافٍ!

ابتسم "ألفرد" بخبثه المعهود، وقال:

- أنا لا أثق في أحد ولا حتى في خيالي! فالكلمة العليا تكون للمصالح التي تتبدل وتتغير، وتجعل صديق الأمس عدو اليوم، والعكس صحيح! لذلك لا تقلق.

وتابع بغموض:

- سأدبر أمراً يجعل منه خاتماً ملتصقاً بإصبعي أكثر مما هو عليه الآن، برغم تركيزي على متابعة وحل أمور القيادة والمعسكر.

تنهد "بونبرت" بارتياح، وقال:

- كلّي ثقة بخبثك أيها العجوز الماكر!

قهقهها بجنون، ثم انصرف "بونبرت" تشييعه نظرات "ألفرد" المليئة بالتعالي والاحتقار!

(٧٣)

كان "محمد" يعيش سعادة غامرة تتغلب على بقايا الألم الذي بدأ يتسرب من ثقب روحه ويغادرها لتلتئم بسرعة، وكان سعيداً باهتمام الكل به، وبمساعدهم له على تخطي جميع فصول الماضي والتقدم في الحفظ والدراسة والتدريب، كم استغرب أنه لم يتعرض لمكيدة من حاسد أو وشاية من حاقد! ولم ير شيئاً من ذلك بين المجاهدين أنفسهم كذلك؛ إذ لا يبدو أن هذه المشاعر السيئة موجودة أصلاً في مكان طاهر كهذا يموج بالأطهار، ولم يُخفِ الأمر على إخوته في الله تعالى خلال سهرة قصيرة بعد صلاة العشاء، بل كشفهم بما في قلبه من مقارنات دائمة بينهم وبين ذلك المعسكر الذي يمور بالحق والكراهة والعداوة حتى بين الصليبيين أنفسهم، وابتسم المجاهد "عمر" ثم قال:

- اسمع يا أخي؛ ربما شعر الإنسان بالغيرة من أخيه لتفوقه عليه، لكن من واجب المسلم أن يسيطر على هذا الشعور ويحوّله إلى غبطة تجعله لا يتمنى زوال الخير عن أخيه من جهة، وتدفعه أن يزيد من جهده ويطوّر قدراته في خدمة الدين من جهة أخرى؛ ليس لينال المديح أو غيره، بل لتزداد حسناته بإذن الله تعالى وكرمه سبحانه، كما قال الله عز وجل: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون}*؛ لذلك لن تجد حتى الغيور منا يَضُنُّ بالعون على مَنْ يغار منه، ببساطة: لأن خدمة الإسلام الغالي الباقي أعظم وأهم من أشخاصنا الفانية التي ستبلى يوماً، وما أكبر ذنب الذي يغلب غيrote على مصلحة دينه! ذلك خسران أليم يسعى إليه إبليس الرجيم!

كم كانت دهشة "محمد" كبيرة وهو يستمع إلى هذا الكلام! يبدو أن الإسلام - بفضل الله تعالى - يجعل أبناءه يتفوقون حتى على أنفسهم، ويهذب طباعهم وظواهرهم وبواطنهم إلى أبعد مدى! فتتصهر قدراتهم وعلومهم وحتى مشاعرهم في بوتقة نصره الإسلام وأداء الواجب تجاهه وحسب! لا وجود لحظوظ النفس، ولا تركيز على غاية أخرى، ولا شراء للدنيا بالدين، بل كل شيء يهون في سبيل هذا الدين!

وقال "عروة":

- كما أن نجاح أخي أو أختي في الله: هو نجاح لي أنا كمسلم؛ لأننا في فسطاط واحد، نعبد رباً واحداً أمر بالتعاون على البر والتقوى، ندين بدين واحد، نواجه عدواً واحداً؛ فإذا ما كنا سنصرف طاقاتنا في حروب جانبية بسبب الاستسلام لوساوس الشيطان، وتلبية لحظوظ النفس الأمّارة بالسوء: فقد وفرنا على عدونا الكثير من العناء! كما أننا لن نكون وقتها جديرين بأن نسير في هذا الطريق؛ إذ لا بد أن نتصرف فيه كما يليق به، ولا يجدر بنا أبداً أن نأخذ دور أعدائنا ونكفيهم مؤونة ذلك بأن يحارب بعضنا بعضاً، وطبعاً هذا لا يعني أننا معصومون لا نخطئ، وإنما يعني أننا إذا أخطأنا فإننا نتوب ونرجع، ولا نكابر ولا ننسى الهدف الأسمى، ولا نعطي ذواتنا القاصرة الفانية وحظوظها مكانةً أعلى منه، حاشا لله.

تمم "محمد" بخشوع:

- يا له من دين عظيم! فعلاً.. دين كهذا بكل معانيه السامية النبيلة الراقية الفاضلة:
لا شك أنه آتٍ من رب العالمين جل جلاله!

يتبع ...

